أدب رعب ما وراء الطبيعة

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

أدب رعب ما وراء الطبيعة

اسم النص الأصلي: SUPERNATURAL HORROR IN LITERATURE

اسم المؤلف: هوارد فيليب لافكرافت

ترجمة: إسلام عماد

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 20121/13116

الترقيم الدولي: 978-977-6634-62-6

الطبعة الأولى: 2021

هوارد فيليب لافكرافت

أدب رعب ما وراء الطبيعة

ترجمة

إسلام عماد

دارك
للنشر والتوزيع

شكر خاص

للصديقتين الغاليتين

الكاتبة/ شيرين هنائي

الفنانة/ آية إبراهيم

على دعمهما المستمر..

تعريف بالمؤلف

وُلـد «هـوارد فيليـب لافكرافت» في 20 أغسـطس 1890 بمدينـة بروفيدنس عاصمـة ولايـة رود آيلانـد الأمريكيـة، كالابـن الوحيـد لوالديـه «وينفيلـد سـكوت لافكرافـت» بائـع المجوهـرات و«سـوزان ني فيليبـس» ابنـة «ويبـل فـان بوريـن فيليبـس» رجـل الأعـمال المشـهور، وانتقـل لافكرافـت مـع والدتـه إلى منـزل جـده، بعـد مـرض أبيـه بالزهـري الـذي اسـتلزم نقلـه للمشـفى حيـث قـضى بقيـة حياتـه إلى أن تـوفي في 1898.

بزغـت موهبتـه منـذ سـن السادسـة عندمـا كتـب أول قصصـه تأثـرًا بجده الـذي نمـى فيـه محبـة القـراءة وتقديـر قصائـد الشـعر وروائـع الأدب الكلاسي

وقصص الأساطير القديمة مثل ألف ليلة وليلة وكتب الأساطير اليونانية، ولكنه في طفولته أصيب بأمراض عديدة منها الصداع النصفي والارهاق المستمر والعصبية الشديدة، فاضطر لترك المدرسة كي يدرس من المنزل لمدة أربعة سنوات أنشأ فيها جريدة «الصحيفة العلمية» التي وزعها على أصدقائه، وعاد بعدها في 1903 ليحصل على قبول بمدرسة هوب الثانوية، لينهمك بعلم الفلك، ويحلم بأن يصبح رائد فضاء فيما بعد، فبدأ بتنفيذ جريدة «رود آيلاند الفلكية» ليوزعها أيضًا على أصدقائه.

توفي جده بعام 1904 تزامنًا مع تدهور حالته المادية، فاضطر للعودة إلى منزل صغير بالحي الذي ولد به، مع تزايد أفكاره الانتحارية نتيجة صعوبة الأوضاع.

في عام 1905، كتب قصة «وحش الكهف»، وبعدها بعام نشر مقالاته الفلكية في مجلة «صحيفة يوم الأحد» في بروفيدنس، ثم أعمدته الشهرية عن الفلك في مجلات أخرى، ليقضى سنوات عديدة في مجال الكتابة بالصحف والمجلات.

في 1908، طرح لافكرافت قصته القصيرة «الخيميائي»، لتُنشر بإحدى المجلات في نوفمبر 1916 كأول قصصه القصيرة المنشورة رسميًا، لتعتبر هذه الفترة هي البداية الرسمية لاتخاذه حرفة الكتابة.

تأثرت بداياته بخجله الشديد في الترويج لنفسه جيدًا، مما أتى له وقتها بدعم قليل لا يتناسب مع موهبته الحقيقية، لكن ظهر الناشر «ويليام بول كوك» الذي عرض عليه مساعدته وتزويده بالكتب، ليشجعه على كتابة المزيد من قصص ودراسات الخيال العلمي.

نتج عن تشجيع كوك للافكرافت عدة قصص منها «داجون» و«المقبرة» في 1917، ليستمر بعدها حتى 1922 في كتابة القصص القصيرة.

تزوج لافكرافت من كاتبة الخيال العلمي الهاوية سونيا هفت جرين عام 1924، لينتقلا إلى شقتها الخاصة ببروكلين حيث استمتعا سويًّا بثروتها المالية وتشكلت دائرة أدبية حوله عُرفَت باسم «نادي كالم»، فساعده تشجيع أعضائها على تقديم المزيد من قصص الرعب والخيال العلمي الأخرى.

سرعان ما فقدت سونيا عملها وتعرضت للمرض، كما تعرض لافكرافت لأزمة مالية عجز بعدها عن إيجاد وظيفة بسبب سنه الكبير وقلة خبراته، فعاد إلى بروفيدنس بعد انفصاله عن زوجته.

في 1927، كتب لافكرافت رواية قصيرة بعنوان «حالة تشارلز ديسكتر وارد»، لكنها نُشرت بعد وفاته، لتصبح واحدة من أهم أعماله على الإطلاق بجانب «ظِل فوق إينزموث» الوحيدة التي نُشرت ورقيًا ككتاب مستقل عام 1931.

تزخر أعمال لافكرافت بالعناوين الهامة مثل «رعب داون ويتش» الصادرة عام 1928، و«في جبال الجنون» عام 1931، و«ظِل خارج الزمن» عام 1935، والتي ابتكر من خلالهم عالمه الخاص المليء بالمصطلحات الغريبة والأسماء المخيفة مثل العزيف، آركام، كثولو، الحظرد وغيرهم، بجانب وضعه لفكرته الفلسفية المسماة بـ «الرعب الكوني».

عاش لافكرافت أغلب حياته فقيراً يرزح تحت ضغط الضائقات المالية، بجانب معاناته في شهوره الأخيرة من آلام سرطان الأمعاء الذي

سرعان عجل بوفاته في 15 مارس 1937، وبعد وفاته جمع صديقاه وتلميذاه «أوجست ديرليث» و«دونالد وانديري» قصصه من صفحات مجلة Pulp ليؤسسا بها دار نشر تحت اسم «بيت آركام»، خوفًا منهما على ضياع أعماله الرائعة التي تنبأ لافكرافت بنسيانها بعد موته لعدم نشره إياها في كتب أو روايات ورقية، وهو ما لم يتحقق بالنهاية ليكتشف الجميع عبقرية لافكرافت بعد وفاته كأغلب العباقرة، ويظل إرث لافكرافت حيًّا طالما بقيت أعماله التي ألهمت تلاميذه وجميع من تأثروا به من كبار المؤلفين أمثال كليف باركر، روبرت بلوخ، نيل جايمان، آلان مور وستيفن كينج.

هـ.ب. لافكرافت واحد من أباطرة أدب الرعب والغرائب عبر العصور فعلًا، حتى صار لكتاباته قسم خاص باسمه في عوالم الأدب هو «الرعب اللافكرافتي» المشتق من مدرسة الرعب القوطي، التي يزامله فيها عباقرة آخرون أمثال إدجار آلان بو، برام ستوكر، ماري شيللي وغيرهم.

ولكن لم يمتد أثر لافكرافت في تأليف القصص والروايات فحسب، بل نراه هنا في هذه الدراسة الأدبية كباحث متعمق في تاريخ الأدب، ومتابع وقارئ شغوف لكل ما تجود به قريحة أدباء عصره والعصور السابقة في مجال الرعب، إذ يستعرض مراحل متفرقة شديدة الأهمية في تاريخ الأدب الغرائبي بدءًا من عصر الرواية القوطية وصولًا إلى وقت نشر هذه الدراسة بمنتصف عشرينيات القرن العشرين.

مقدمة

الخوف هو أقدم وأقوى الانفعالات البشرية، وأقدم وأقوى أنواع الخوف هو الخوف من المجهول. هذه حقائق لا ينكرها إلا قلة من علماء النفس، والاعتراف بها يثبت بشكل دائم أصالة ومنزلة قصص الرعب الغرائبي كصنف أدبي. إذ يُشهر عليها سيوف الأسلوب الأدبي المادي الذي يتمسك بالعواطف المكررة والأحداث الخارجية، وبالمثالية الساذجة التي تستنكر الدافع الجمالي وتنادي بالأدب الوعظي كوسيلة لـ «الارتقاء» بالقارئ لدرجة مناسبة من التفاؤل الباسم. وبالرغم من كل هذه المعارضة التي تواجهها القصة الغرائبية، فلقد استطاعت أن تتخطاها لتتطور وتعلو لأسمى درجات الكمال المؤسسة على مبدأ واضح وأساسي أنها يجب أن تتصف بالجاذبية، التي وإن لم تكن منتشرة

بشكل عالمي دائمًا، إلا أنها بشكل ضروري يجب أن تظل مؤثرة ومستمرة بالأذهان ذات الحساسية المطلوبة.

تتسم جاذبية أجواء رعب الأشباح بالضيق بشكل عام، لأنها تتطلب من القارئ درجة معينة من الخيال والقدرة على الانفصال عن مجريات الحياة اليومية. فيوجد القليلون ممن تحرروا نسبيًّا من لعنة الروتين اليومي كي يتمتعوا بقصص أصوات النقر القادمة من الخارج، بينما قصص المشاعر المعتادة والأحداث والتشوهات العاطفية الشائعة ستحتل دائمًا المرتبة الأولى في ذائقة الأغلبية، ربما لأن هذه الأمور المعتادة تشمل بالتأكيد السواد الأعظم من تجارب وخبرات البشر.

ولكن سيرافقنا دائمًا ذوو العقول الحساسة، وأحيانًا ستحتل لمسة خيال فضولية ركنًا مظلمًا داخل أكثر العقول صلابةً، بحيث يعجز أيٌّ قدرٍ من العقلانية أو الدعاوى الإصلاحية أو حتى التحليل النفسي الفرويدي أن يمنع التشويق الناتج عن الهمسات الخافتة بالأركان بجانب المدخنة حيث لا تتواجد سوى كومات الأخشاب.

وهنا يشترك النمط النفساني مع التقاليد بشكل واضح ومتأصل بعمق في الخبرات العقلية مثل أي نمط أو تقليد آخر للبشرية أجمع، ليتماثلوا مع الشعور الديني ويتصلا بشكل وثيق مع العديد من جوانبه، ويفقد جزء كبير من تراثنا البيولوجي الداخلي فاعليته الواضحة على أقلية مهمة من جنسنا البشري بالرغم من عدم ضخامة أعداد هذه الأقلية.

تشكل رد فعل الإنسان نحو البيئة التي وجد نفسه بها على يد غرائزه وأحاسيسه الأولى. إذ نمت مشاعر محددة تتصل بالمتعة والألم

بسـبب الظواهـر التـي تمكِّـن الإنسـان مـن فهـم أسـبابها ونتائجهـا، بينـما الظواهـر التـي لم يفهمهـا الإنسـان واكتـظ بهـا الكـون في بدايتـه أنتجـت بشـكل طبيعـي تجسـيدات وتفسـيرات خيالـية تحـوم حولهـا مشـاعر الرهبـة والخـوف، عـلى يـد جنـس ذي أفـكار قليلـة بسـيطة وخـبرات محـدودة كالبـشر.

بالنسـبة لأجدادنـا البدائيـين، أصبـح كل مـا هـو مجهـول ولا يمكـن التنبـؤ بـه مصـدرًا عظيـمًا للهبـات أو الكـوارث التـي تحـل عـلى البـشر لأسـباب غامضـة خارجـة عـن عالمنـا المتواضـع، بـل تنتمـي بالتأكيـد لطبقـات عليـا مـن الوجـود الـذي نجهلـه ولا نملـك منـه شـيئًا.

كذلـك سـاعدت ظاهـرة الحلـم - وكل أحـوال فـترة فجـر التاريـخ عمومًـا - عـلى ترسـيخ الصفـة الخياليـة للعـالم الروحـاني، فاتجهـت الحيـاة بقـوة نحـو الإحسـاس بالماورائيـات فلـم يعـد يصيبنـا الدهشـة مـن أن كينونـة الإنسـان التـي ورثهـا عـبر السـنين قـد تشـبعت بالديـن والخرافـات معًـا.

وهــذا التشــبع لا بُــدَّ - كحقيقــة علميــة لا جــدال فيهــا- أن يُعتــبر باقيًـا عمليًّـا طالمـا بقـي العقـل الباطـن والغرائـز الداخليـة؛ وعـلى الرغـم مـن التناقـص المسـتمر لرقعـة المجهـول عـبر الآف السـنين، ولكـن لا زالـت مسـاحات شاسـعة مـن الغوامـض تبتلـع بداخلهـا أغلـب الكـون الخارجـي، بينـما تتشـبث بقيـة الجمعيـات القويـة الموروثـة بالمواضيـع والعمليـات التـي كانـت غامضـة في وقـت سـابق لكـن وُضحـت مؤخـرًا للجميـع.

والأكـثر مـن هـذا، فهنـاك تمركُـز فسـيولوجي حقيقـي للغرائـز القديمـة داخـل خلايانـا العصبيـة، والتـي تظهـر آثارهـا بشـكل غامـض عنـد تطهـير العقـل الواعـي مـن كل أسـباب دهشـته.

لأننـا نتذكـر آلامنـا والمخاطـر المميتـة بشـكل أكـثر وضوحًـا مـن تذكرنـا للأوقـات السـعيدة، ولأن مشـاعرنا تجـاه الجوانـب الإيجابيـة للمجهـول قـد ثُبتـت مـن البدايـة بشـكل رسـمي بواسـطة الطقـوس الدينيـة التقليديـة، فمالـت هـذه المشـاعر نحـو الجانـب المظلـم الأكـثر شرًا للغمـوض الكـوني، ليظهـر هـذا واضحًـا في فولكلورنـا الشـعبي المـاورائي.

يتأكـد هـذا الميـل أيضًـا بشـكل طبيعـي بإدراكنـا لحقيقـة أن عـدم اليقـين والخطـر حليفـان وثيقـان دائمًـا؛ وهـو مـا يجعـل أي نـوع مـن العوالم المجهولـة لنـا هـو عـالم مـن الأخطـار والـشرور المحتملـة.

وعندمـا نضيـف الروعـة الحتميـة للتسـاؤل والفضـول لهـذا الإحسـاس بالخـوف والـشر، ينتـج عنهـم حينهـا مزيـج مـن العاطفـة الشـديدة واسـتفزاز الخيـال الـذي تـدوم حتميـة وجودهـما باسـتمرارية وجـود الجنـس البـشري نفسـه.

سـيخاف الأطفـال دائمًـا مـن الظـلام، ومـن امتلكـوا عقـولًا حساسـة للدوافـع الموروثـة منـذ القـدم سيرتعشـون دائمًـا لفكـرة العـوالم الخفيـة التي لا يمكـن سـبر أغوارهـا المليئـة بحيـوات غريبـة تنبـض بالخلجـان وراء النجـوم، أو تظهـر ببشـاعة في عالمنـا عـبر أبعـاد ملعونـة لا يلمحهـا سـوى المـوتى وشـاردي الذهـن.

وعـلى هـذا الأسـاس، فـلا حاجـة لأن يندهـش أحـد مـن وجـود أدب الرعـب الكـوني. فلقـد تواجـد منـذ البدايـة، وسـيظل متواجـدًا دائمًـا؛ ولا يوجـد دليـل عـلى قوتـه العنيـدة أفضـل مـن الاستشـهاد بالدافـع الـذي يحـث الكُتـاب الآن ولاحقًـا عـلى مخالفـة ميولهـم وتجربـة الخـوض بأيديهـم في

غمار هذا الصنف الأدبي عبر قصص منفصلة، كما لو أن ذلك سيُخرِج من داخلهم أشكالًا خيالية معينة ستطارد عقولهم إن لم تخرج.

وهكذا كتب تشارلز ديكنز عدة روايات غريبة؛ وظهرت القصيدة البشعة «الفتى رولاند» للشاعر روبرت براوننج؛ رواية «دورة البرغي» لهنري جيمس؛ رواية «إيلسي فينير» للكاتب د. أوليفر ويندل هولمز؛ قصة «الفراش العلوي» وعدد من الأمثلة الأخرى للكاتب فرنسيس ماريون كراوفورد؛ القصة القصيرة «ورق الحائط الأصفر» لعاملة الخدمة الاجتماعية السيدة شارلوت بيركنز جيلمان؛ كما أنتج الكاتب الساخر ويليام وايمارك جاكوبز تلك الرائعة الميلودرامية المسماة «مخلب القرد».

يجب عدم الخلط بين هذا النوع من أدب الرعب مع نوع مشابه ظاهريًّا، ولكنه يختلف نفسيًّا على نطاق واسع؛ وهو أدب الرعب المعوي الشنيع للغاية. تلك الكتابات بالتأكيد لها مكانتها مثلما لقصص الأشباح التقليدية أو حتى الخيالية والفكاهية منها التي ينزع عنها الأسلوب الرسمي للكاتب أو إيحاءاته الإحساس الحقيقي بغموض الأحداث؛ ولكن لا تُمثل هذه الأشياء أدب الرعب الكوني في أنقى حالاته.

القصة الغرائبية الحقيقية بها ما هو أكبر من جريمة سرية وعظام دامية أو شبح بملاءة بيضاء وسلسلة معدنية متدليه منه كالمعتاد. هناك حالة معينة من الرهبة التي لا يمكن وصفها بحيث تنحبس لها الأنفاس، يجب أن تتواجد هذه الرهبة بسبب قوى خارجية مجهولة؛ ولا بُدَّ من وجود توضيح يشير لها بكل جدية، لتظهر كأكثر التصورات الكارثية التي قد يتخيلها العقل البشري، مع إلغاء خبيث ومحدد لقوانين الطبيعة

الثابتـة التـي تشـكل حاجـزًا دفاعيًّـا ضـد هجـمات الفـوضى والشـياطين القادمـة مـن أغـوار الفضـاء الغامضـة.

بطبيعـة الحـال، فـلا يمكننـا أن نتوقـع توافـق جميـع الحكايـات الغرائبيـة بشـكل تـام مـع أي نمـوذج نظـري للقيـاس. فالعقـول المبدعـة لا تتشـابه، وأفضـل الأعـمال لديهـا نقـاط ضعفهـا الخاصـة.

عـلاوة عـلى ذلـك، فـإن معظـم الأعـمال الغرائبيـة المختـارة هـي أعـمال ناتجـة مـن الـلا وعـي، تظهـر كشـظايا ذاكـرة مبعـثرة بـين مـواد أخـرى قـد ينتـج عنهـا أثـرًا شـاملًا مختلفًـا بالكامـل.

ولكـن حالـة الأجـواء هـي الأهـم، لأن المعيـار النهـائي للأصالـة ليـس دمـج أحـداث الحبكـة، ولكـن الوصـول لإحسـاس معـين. يمكننـا القـول بشـكل عـام أن القصـة الغرائبيـة التـي تهـدف لتعليـم المجتمـع أو التأثـير عليـه، أو يُفسَّر رعبهـا بوسـيلة طبيعيـة في النهايـة، ليسـت قصـة رعـب كـوني أصيلـة؛ ولكـن بالتأكيـد قـد تمتلـك هـذه الروايـات أحيانًـا -في بعـض مقاطعهـا المنفصلـة- لمسـات خاصـة بأجوائهـا تسـتوفي جميـع شروط أدب رعـب مـا وراء الطبيعـة الصريـح.

لذلـك يجـب ألا نحكـم عـلى الحكايـة الغرائبيـة بنوايـا مؤلفهـا، أو مـن خـلال آليـات الحبكـة، ولكـن بمسـتوى الإحسـاس الـذي تصـل إليـه بأقـل مواضعهـا العاديـة. فـإذا أثـيرت الأحاسـيس المطلوبـة، وجـب وضعهـا حينهـا بمكانـة عاليـة تليـق بمزاياهـا المنتميـة لـلأدب الغرائبـي، مهـما صـارت القصـة ركيكـة فيـما بعـد.

الاختبـار الحقيقـي للغرائبيـة التامـة هـو ببسـاطة: نجـاح أو فشـل العمـل